

المطلقة ، نريد أن ندرس مذهبه الأخلاقي على ضوء نصوصه كما هي طريقتنا دائماً في هذه الدراسات

قال « كوفيشيوس » في كتاب « تشونج - يونج » ما نصه : « إن الطبيعة هي الإرادة الإلهية الخالدة ، وإن الحياة بحرية أو اتباع الطبيعة هو واجب الإنسان أو « تاوو » ، وإن معرفة الواجب هي الدين نفسه . إن الواجب هو ذلك الشيء الذي ليس بمسموح لأحد إبعاده لحظة واحدة ، لأنه لو سمح بالبعد عنه لحظة لما أصبح هو الواجب ، ولهذا يبنى الحكيم في شيء من الانتباه بما لا يرى في داخله ويخشى في شيء من القلق ما لا يسمعه بأذنه ، ويجب ألا يعالج بالكشف والايضاح إلا ما هو مخفي في داخل نفسه ، ويجب ألا يكون شيء أوضح لديه من أعمق طيات قلبه ، ولأجل ذلك يلقي الحكيم بنفسه بين أعطاف هذه المعالجات التوضيحية كلما خلا بنفسه ، وحينما تكون النفس غير محتاجة بأحاسيس حب أو غضب أو حزن أو سرور يقال عنها إنها في حالة الاعتدال أو « تشونج » ، وحينما تولد هذه الأحاسيس في النفس دون أن تتجاوز الحد المعتدل ، قيل عن هذه النفس : إنها في حالة الانسجام « تاوو » وإذا ، فالاعتدال هو الأصل ، والانسجام هو القانون العام ، وحينما يلحق الاعتدال والانسجام غائهما يسود النظام في السماء وعلى الأرض ، وتنمو جميع الكائنات »

من هذه النصوص يتبين مذهب هذا الحكيم في الأخلاق جيداً ، وتضخ فكرته عن الواجب والاعتدال والانسجام ، ومن الجملة الأخيرة بنوع خاص نلح مذهب « كانت » قبل وجوده بأكثر من أربعة وعشرين قرناً ، وهو القائل بأن الاعتدال هو أصل أساسي في النفس ، وبأن الحيدة عن الصراط المستقيم طارئة على الإنسان بسبب أحاسيس الحب والبغض والغضب والرضى والسرور والحزن ، وبأن الحرية الأخلاقية هي منشأ السئولة ، وبأن الانسجام ضرورة سماوية لبقاء العالم ونموه وسيره نحو الكمال وما أقوى الشبه بين نص « كوفيشيوس » القائل : « وحينما يلحق الاعتدال والانسجام غائهما يسود النظام في السماء وعلى الأرض ، وتنمو جميع الكائنات » ونص « كانت » القائل : « إن كل ما لو عم لصلحت الأرض هو الخير ، وكل ما لو عم لفسدت الأرض هو الشر »

بل ما أحكم الصلة بين نص « كوفيشيوس » القائل : « إن

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

للدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

- ٢٩ -

—•••••—

الفلسفة الصينية

العصر المنهجي — كوفيشيوس

المقدم عنده

جزم أكثر المُستَـصَنِّين بأن غاية « كوفيشيوس » من فلسفته العملية كانت إصلاح الهيئة الاجتماعية في عصره ، وإحداث تجديد أخلاقي وعمرائي وسياسي في الدولة ، ولكن العالم المحقق « زانكير » يرى أن هذا غير صحيح ، ويصرح بأن حكيمنا لم تكن له غاية أخرى غير تحقيق الواجب في ذاته ، وأن النظريات التي ترى إلى المنفعة أو إلى السعادة أو التي تعطل الأمر والنهي الأخلاقيين بعلّة خارجة عن الواجب لا أثر لها في مذهبه وهو في هذه الناحية يشبه « كانت » في رأى الأستاذ « زانكير » إذ كلاهما يأمران باتباع الواجب لذاته لا لشيء آخر ، وهو يستدل على صحة رأيه بالنص الآتي من كلام « كوفيشيوس » في كتاب « لون - يو » : « إن الحكيم يتعطش إلى الفضيلة ، والرجل العاى يتحرق إلى اللذائذ المادية ، وإن الحكيم يعنى بأن يلاحظ الواجب ويدعن له ، والرجل العاى لا يهتم إلا بأن يتصيد ما فيه من فوائد ، وإن الحكيم لا يفهم في المعبوم إلا الواجب ، أما العاى ، فهو لا يفهم إلا منفعته » (١)

لا ريب أن هذا النص يؤيد الأستاذ « زانكير » فيما ذهب إليه ، لأنه صريح في أن الحكيم لا يأبه إلا للواجب في ذاته ، وأنه إذا حاد عن هذا الطريق فاكثر بأى شيء آخر كالذمة أو منفعة هوى إلى صفوف العامة والجاهير ، والآن وبعد أن أثبتنا أن « كوفيشيوس » كان في مقدمة القائلين بـ « الفيذاتية »

(١) راجع كتاب « لون - يو » فصل ٤

لا ريب أن عدم احتمال الفقر عند غيبة الأخلاق أمر مفهوم لأن من تموزة فضيلة الصبر يتمدب بمرارة الفقر، أما عدم احتمال الغنى في تلك الحالة فلمل الحكيم يقصد به أن الغنى في حالة فقد الفضيلة خطر لا يحتمله حتى صاحبه . بقى علينا الآن أن نشرح كلمة « جين » الواردة في هذا النص الذي أسلفناه لك كما فهمها المستصينون ، ومعناها : الأخلاق ، أو الواحد لأجل الجميع ، أو الفرد للمجموعة

وجه بيد ذلك سؤال إلى « كوفيشيوس » من معاصريه قالوا له فيه : كيف يتبع الانسان الواجب دائماً ؟ وما هي الوسيلة العملية لتحقيق هذا الواجب ؟ وما هو ذلك الصوت الذي تقول إنه ينادى دائماً بالأذعان للواجب ؟ وأى ضمان يطمئن الانسان على أنه سائر دائماً في طريق الواجب ؟ فأجاب بقوله : إن الطريق العملي لتحقيق الواجب هو الاذعان لهذا الصوت الداخلي ، وإن الضمان المطمئن هو إيمان مراقبة النفس حتى يكشف جميع دواخلها ، فإذا حصل للفرد هذا الكشف وصل إلى درجة الحكمة ، لأن القلب حينما يقوده الهوى ينسحب إلى الشر دون أن يشعر فيصبح الانسان يرى ولا يبصر ويسمع ولا يعقل . والعلة في هذا هي أن العواطف والأهواء تسود أعمالنا وتبتمنا من أن نحكم أحكاماً صحيحة على أنفسنا وعلى العالم الخارجي .

أحسب أن الباحث لا يجد عسراً في ربط هذا الجواب الأخير بقول حكيم اليونان الأول : « إعرف نفسك بنفسك » تلك الحكمة التي وجدها «سقراط» - فيما تقول الأساطير الاغريقية - مكتوبة بالذهب على عتبة معبد « دلفي » واستغلها فكانت أساساً صالحاً لفلسفته وفلسفة تلميذه العظيم « أفلاطون » بل إنها ظلت تتغلغل ساطعة في غيايات المستقبل حتى كانت أحد أسباب جلال «ديكارت» وخلوده حيث صرح بعد اثنين وعشرين قرناً بقوله : «إني لما كشفت الأنا حلت مصباحه الذي على سناه كشفت كل اللأنا» على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل إن الأستاذ « زانكبير » يرى أن فلاسفة اليونان الذين قالوا بمبدأ « إعرف نفسك بنفسك » لم يتنبهوا إلى المقبات التي تتمتع سبيل الانسان عند ما يحاول هذه المعرفة ، وهو يصرح بأن « كوفيشيوس » إن لم يزد على أولئك الفلاسفة في هذه النقطة فهو من غير شك يساويهم فيها . وبناء على ذلك ، فالقائلون بأن « كوفيشيوس »

الاعتدال هو الأصل والانسجام هو القانون العام « وبين نص « كانت » القائل : « إن إرادة كل فرد عاقل معتدل هي المؤسسة للقانون العام »

يرى « كوفيشيوس » كما يرى « كانت » أن كل إنسان إذا حقق الانسجام الطبيعي وثبته في داخل نفسه كما شاءته الإرادة الإلهية ، فقد حقق الواجب ، وهو يرى كذلك أن الحرية النفسية يجب أن تسبق تأدية الواجب ، وأن الإرادة البشرية ليست موفقة دائماً لتحقيق الواجب ، وأنها تستطيع أن تبتعد عنه ، ولكن ليس معنى هذا الاعتماد أن يتغير الواجب ، كلا ، بل هو كما تبعته الإرادة البشرية أو لم تبعته ، وهذا يدل - كما يرى الأستاذ « زانكبير » - على أن قانون الأخلاق هو معتبر في ذاته أو هو مطلق عام لا شخصي مقيد ، ولولا ذلك الاطلاق وهذه العمومية لما كان قانوناً أخلاقياً لكل أفراد الانسانية ، بل للسما والأرض وعنده أيضاً أن جميع أفراد بني الانسان متساوون أمام هذا القانون الأخلاقي ، وأنه في درجة من الوضوح لا تخفى على أي فرد ، لأن العلم به فطري ، وهو يرى لذلك أن الواجب لا غاية له إلا ذاته ، وأنه إذا لوحظت في تأديته غاية أخرى من منفعة أولادة أو أية غاية أخرى ، خرج عن كونه واجباً عالمياً وأصبح غير صالح للجميع ، لأن الناس يختلفون في غاياتهم الشخصية ، فإذا أخضعنا الواجب لبعض تلك الغايات التباينة لم يعترف به الآخرون الذين ليس لديهم مثل هذه الغايات ، وبهذا يفقد كل شيء

وعنده أيضاً كما عند « كانت » أن العمل إذا قصد به غير وجه الواجب سقطت قيمته الأخلاقية وأصبح نفعياً ، وأن اتباع الإرادة للواجب يصيرها سامية فوق اعتبارات الحياة العامة ، وأن الحكيم يشعر في داخل نفسه عند أداء الواجب بأقصى أنواع السعادة ، وهو في كل هذا يقول : « إن الانسان ذا الأخلاق الكاملة (جين) هو الذي يقدم المتب المضى على النافع اللذيذ ولا يلتفت عند أداء الواجب إلى ما يستغنيه منه ^(١) » ويقول أيضاً : « إن الانسان بدون الأخلاق لا يستطيع أن يحتمل الفقر ولا الغنى وقتاً طويلاً . وإن الأخلاقي يجد في الأخلاق كل رضى وإن الحكيم لا يصيره شرها نهما إلا كثر الفضيلة ^(٢) »

(١) كتاب « لون - يو » ، فصل ٦

(٢) كتاب « لون - يو » ، فصل ٤

في المدينة حد الكمال استتمت الامبراطورية بالسلام التام (١) «
أحسب أنه بعد كل الذي قدمناه من آراء هذا الحكيم القينة
وبعد هذه الموازنة التي أسلفناها بينه وبين أولئك الفلاسفة القدماء
والمحدثين لامننى لأن يقطعه بعض الباحثين النريين حقه فيرموه
تارة بأنه ليس فيلسوفاً ، وأخرى بأنه عملي أو نقى . وأحسب
كذلك أنه لا ينبغي أن تتأثر في حكمتنا على هذا الفيلسوف بذلك
النشويه الذي أصاب مذهبه بعد عصره ، بل يجب علينا أن نضع
نسب أعيننا ذلك السمو الفلسفي ، والنبل الأخلاق الذي تفيض
بهما مؤلفات « كوفيشيوس » وأن نذكر دائماً أنه وضع
للتفلسف ثلاثة شروط أساسية ، الأول الاخلاص الكامل في
كل ما يخطوه من خطوات علمية أو عملية . الثاني البدء بدراسة
(الأننا) ليتوصل به إلى كشف كل (الأننا) . الثالث الدراسة
النقدية العميقة لجميع الأشياء الخارجية . فإذا لاحظنا كل هذا
جزمنا بأن كل من لا يسمو بهذا الفيلسوف إلى الصف الأول
من صفوف مفكرى الانسانية كان غير موفق في دراسته وحكمه
يبيع » محمد غنوب

(١) كتاب « تاو » فصل ٥

حتى لو كان قد تنبه إلى معرفة النفس بالنفس فإنه قصر في معالجة
العقبات الناشئة من هذه المحاولة هم على خطأ في هذا الرأي ، لأن
تلك العقبات لم يعرض لها إلا علماء النفس في العصور الحديثة .
وإذن ، ففلاسفة الاغريق وحكيم الصين في هذا الموقف متساوون
بمختلف « كوفيشيوس » مع « لاهو — نسيه » في وسيلة
الوصول إلى الكمال الخلقى ، فأما « لاهو — نسيه » فهو يرى
أن التأمل النفساني كاف للوصول الانسان إلى الكمال أو إلى تحقيق
الانسجام المطلق في جميع حركاته . والانسجام عنده هو المسمى
بالكون الطبيعي الذي لا يتقصنا إلا حيناً ننشغل بالظواهر ، ومتى
فصمنا عرى صلاتنا بها عاد إلينا . أما « كوفيشيوس » فيرى أن
من المستحيل قطع صلاتنا بالظواهر الخارجية ، وأن كل محاولة
في هذا السبيل فاشلة ، وأن الانسان لا يصل أبداً إلى الانسجام
المطلق في جميع حركاته ، وإنما يصل إلى انسجام نسبي يقترب من
الاطلاق بمض الشئ ، وأن التأمل وحده ليس كافياً ، وإنما يجب
أن تضم إليه الثقافة والمعارف الخارجية ، بل إن الثقافة هي الجوهر
الأساسي للوصول إلى المعرفة والفضيلة الكاملتين ، وهو لهذا
يقول : « إن الشغوف بالدراسة يمنح فضيلة الحكمة ، وإن من
يقوم بمجهود يمنح فضيلة حب الانسانية ، وإن الذي يحمر وجهه
خجلاً من أنانيته يمنح فضيلة القوة (١) » وهذه الفضائل الثلاث
هي عنده الواجب أو ضروريات الكمال . وهو يرى أن الدراسة
الحقيقية للثقافة والفضيلة يجب أن تتناول حقائق الأشياء : مغزياتها
ومحسباتها تناولاً دقيقاً مؤسسا على النقد الذي لا يعرف هواة
ولا ليناً ، ولا يخضع لرحمة ولا عاطفة ولا هوى ، فإذا بنت الدراسة
من هذه الموائج أنتجت أسبى النتائج وأرقاها . وفي هذا يقول :
« حينما تدرس طبيعة الأشياء عن قرب وبانتباه تصل المعرفة إلى
أعلى آواجها . وحينما تبلغ المعرفة أقصى آواجها تصبح الارادة
كاملة ، وحينما تصبح الارادة كاملة تصير حركات القلب منظمة
متفقة مع القانون . وحينما تصبح حركات القلب منظمة يتخلص
الانسان من الآثام . وبعد أن يتخلص الفرد من الآثام يشرع في
توطيد دعائم النظام والانسجام في الأسرة . وإذا ساد الانسجام
في الأمر بلغ الحكم في المدينة درجة الكمال ، وإذا بلغ الحكم

(١) كتاب « تشونغ — يونج » فصل ٢٠

وَسَلَّمَ خُضَيْرٌ

١٠٥٧



١٠٥٧

برليشة ذهب عيكار ١٤

مضمون ٣ سنوات

لستعمله الحكيم كوماتا لشرقية
مكتبة و مطبعة خضير بشارع عبد العزيز بدم